ومن معانى السلطان : القَهْر على عمل شىء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشىء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لأتباعه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم رَهْن الإشارة ، إنما أنا لا سلطانَ لى عليكم ، لا سلطانَ قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال فى النهاية : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا فزَّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمَنْ أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعنى : أزال سبب صراخه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾

﴿فِرْعَوْنَ .. (٤٦)﴾ [المؤمنون] لقب لكل مَنْ كان يحكم مصر ، مثل كِسْرى فى الفرس ، وقيصر فى الروم ، وتكلَّمنا عن معنى (الملأ) وهى من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشراف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قَيْد النواظر يعنى : مَنْ ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾ [المؤمنون] والاستكبار غير التعالى ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أنْ يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والعالون هم الملائكة المهيّمون في الله ، والذين لا يدرون شيئاً عن آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من الأمم السابقة ، إنهم يريدون الرسول ملكاً ، كما جاء في موضع آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ومن الغباء أن يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون أسْوة للبشر ؟ وكيف سيرونه ويتلقّون عنه ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يأتيهم في صورة بشر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذي يجعلك تُصدِّق أنه ملك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما - أي : بني إسرائيل - خدم لنا ، يأتمرون بأمرنا ، بل ونُذلّهم ونُذبِّح أولادهم ، ونستحيي نساءهم ، ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمّى ذلك عبادة ، لأن مَنْ يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

أي : بالغرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مُثْلة وعبرةً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : التوراة ، وفيه منهج الهداية ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : يأخذون الطريق الموصّل للغاية الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ (١) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن فى حديثه عن عيسى عليه السلام مرة يقول : ابن مريم ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية عيسى عليه السلام بأمه هى التى جعلتْ سيدتنا وسيدة نساء العالمين مريم ساعة تُبشَّر بغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسسنى بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أنْ تتزوّج وتُنجب ، لماذا ؟ لأن الله

---

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٦) : « اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟

- بمصر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ليس الربى إلا بمصر . قال ابن كثير : وهو بعيد جداً .
- دمشق . قاله سعيد بن المسيب . وقال ابن عباس : أنهار دمشق .
- الرملة من فلسطين . قاله أبو هريرة .
- بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة .

قال ابن كثير : « هذا والله أعلم هو الأظهر ؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهذا أولَى ما يُفسّر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار » .

سمَّاه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .

وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها رجل ؛ لأن عِرْض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق - تبارك وتعالى - لهذه المسألة ، وأعدَّ مريم لاستقبالها ، وأعطاها المناعة اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن فى التطعيم ضد الأمراض ، وإعطاء المناعة التى تمنع المرض .

فلما دخل زكريا - عليه السلام - على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأتِ به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فَهْم تام لقضية الرزق ، ولم يكُنْ كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا الموقف درس لكل أب ولكل ولىّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شىء يراه فى بيته ولم يأتِ هو به ، حتى لا يدعَ لأولاده فرصة أنْ تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا - عليه السلام - بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة فى حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجتْ إلى بُؤْرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الوَلد وقد بلغ من الكِبَر عِتياً ، وامرأته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسَّتْ بالحمل دون أن يمسسْها بشر فاطمأنتْ ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فأخبر

سبحانه عن المثنى بالمفرد ﴿آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه وُلد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون فى أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآنى هذه المساواة فيُقَدِّم عيسى فى آية : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء] هذه العدالة فى النص لأنهما سواء فى الخبرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هى الأمر العجيب الذى يُثْبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخَلْق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخَلْق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب فى خَلْق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإنْ أراد أنْ يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى فى اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدودَ لها .

يقول سبحانه : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إنْ قُدِّر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التى تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] من الطبيعى بعد أن حملتْ مريم بهذه الطريقة أنْ تُضطهد

من قومها وتُطارد ، بل وتستحى هى من الناس وتتحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعالى عن ابنة شعيب : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥) ﴾ [القصص] على استحياء ، لأنها ذهبت لاستدعاء فتىً غريب عنها ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لما سئل الإمام محمد عبده وهو فى باريس : بأىِّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حادثة الإفك ؟ فألهمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذى قابلتْ به مريمُ قومَها وقد جاءتْ تحمل ولدها ؛ ذلك لأنهم أرادوا أنْ يأخذوها سُبة ومطعناً فى جبين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مريم حين يرى مسألة حَمْلها ، وهو أغْير الناس عليها بدل أنْ يتشكك فيها ويتهمها يتحوَّل قلبه عليها بالعطف ، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فإذا به يخدمها ويحنُو عليها ؛ لأن الله أنزل المسألة على قلبه منزل الرضا ، وكل ما قاله فى مجادلة مريم وفى الاستفسار عَمَّا حدث بطريقة مهذبة : يا مريمُ أرأيتِ شجرة بدون بذرة ؟ فضحكتْ مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعمَ الشجرة التى أنبتت أول بذرة[1] إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١١٦/٣) وفيه أن مريم عليها السلام ردت عليه فقالت : « أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم » فصدّقها وسلم لها حالها .

[المؤمنون] وساعةَ تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوى إليه ، وكذلك كانت مريمُ مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهى مضطهدة من قومها . ولا بُدَّ فى مكان الإيواء هذا أنْ تتوفر فيه مُقوِّمات الحياة ، خاصة لمثل مريم التى تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعدَّ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لمريم مكان الإيواء : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ .. ۝٥٠ ﴾ [المؤمنون] وهى المكان العالى عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة فى الأرض المستوية والبرودة فى أعلى الجبل .

﴿ ذَاتِ قَرَارٍ .. ۝٥٠ ﴾ [المؤمنون] يعنى : توفرتْ لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمرُّ عليها ماءً معيناً ، يعنى : تراه بعينك ، والطعام يأتيها من ثمار النخلة التى نزلت بجوارها .

ومعلوم أن الربوة هى أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضرُّ بمزروعاتها ؛ لأنها تتصرف فى الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ المثل للأرض الخصبة التى تؤتى المحصول الوافر ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. ۝٢٦٥ ﴾ [البقرة]

إذن : اختار الله تعالى لمريم القرار الذى تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قضية عامة بعد أن تكلَّم عن القرار ومُقوِّمات الحياة ، وهى الطعام والشراب والهواء ،

فناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

لكن ، كيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل جميعاً فى وقت واحد ؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأت خاصاً بمحمد ﷺ ، وإنْ نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامى فيما آمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأننى الخالق الذى أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، وإلاَّ تعطلتْ عن أداء مهمتها .

فلكى تؤدى الصالح فى حركة حياتك عليك أنْ تبدأ بالمطْعَم الطيب الذى يبنى ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمتْ ذراتُك وتوافقتْ أعانتك على الصالح .

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتُك تنافرتْ وتعاندت ، كما لو وضعتَ للآلة وقوداً غير ما جُعل لها ، فافهموا هذه القضية ؛ لأننى أنا الخالق فآمنُوا لى كما تؤمنونَ بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكمَ قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن

العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك فى سيرة النبى ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبى فى يوم صامه وهو حارّ شيئاً من اللبن يفطر عليه ، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تَملك شيئاً فأرسل إليها : من أين لك هذا اللبن ؟ فأرسلت إليه : من شاة عندى ، فبعث إليها : ومن أين لك بالشاة ؟ قالت : اشتريتها بمال دبّرته . فشرب رسول الله من اللبن[(١)] .

وإنْ كنا نحن لا نتحرى فى مَطْعمنا كُلَّ هذا التحرى ، لكن هذا رسول الله الذى يُنفذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه . وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ۝١٧٢ ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[(٢)] .

نعم ، كيف يُسْتجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مُشوّش دَنَّسه وخالطه الحرام ؟

وفى حديث سيدنا سعد رضى الله عنه لما قال لرسول الله : يا رسول الله ادْعُ الله لى أنْ أكون مُستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

---

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك في طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن ؟ قالت : من شاة لي . قال : فرد إليها رسولها : أنى كانت لك هذه الشاة ؟ قالت : اشتريتها من مالي فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله بعثت لك باللبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت الرسول فيه فقال لها : بذلك أمرت الرسل ألا تأكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) وقال : « رواه الطبراني وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

« يا سعد أطبْ مطعمك تكُنْ مُستجاب الدعوة »[1] .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] يعني : أعلم ما يُصلحكم ، وما يجلب لكم الخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) ﴾

بعد أن تكلَّم الحق - سبحانه وتعالى - عن المعركة بين الإيمان والكفر أراد هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقلّ خطورة عن الأولى ، وهي معركة الفُرْقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذّرنا من الخلافات التي تشقُّ عصانا ، وتفُتُّ في عَضُد الأمة وتُضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنَّا بعدما وصلنا إليه من شَيع وأحزاب - ليتفقوا أولاً فيما بينهم ، ثم يُبشِّروا بالإسلام .

الأمة : الجماعة يجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتُطلَق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التي لا تجتمع إلا في أمة ، لذلك سمَّى الله تعالى نبيه إبراهيم أمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أما قوله سبحانه : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة] فكيف نقول : إنها أمة واحدة ؟

قالوا : لأن الدين يتكوّن من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة ؛ لأنها تأتي بما يناسب حركة الحياة في كل عصر .

---

(١) عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا .. (١٦٨) ﴾ [البقرة] فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال رسول الله ﷺ : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٩١) وقال : « رواه الطبراني في الصغير وفيه من لم أعرفهم » .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فالأمة واحدة يعنى فى عقائدها وإن اختلفتْ فى الشريعة والمنهج ، والأحكام الجزئية التى تتعرض لأقضية الحياة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ .. (٥٠) ﴾ [آل عمران]

وكانوا فى الأمم السابقة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذى وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفَّف عن الناس هذا العَنَت ، وشرع لهم أنْ يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾ [المؤمنون] يعنى : اتقوا الله فى هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يُفرِّقها من خلافات حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر ؛ لأنهم يريدون أنْ يَنْهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لأنفسهم .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

فالأمور التى أحكمها الله باللفظ الصريح المُحْكَم أصول لا خلافَ عليها ولا اجتهادَ فيها ، وأما الأمور التى تركها سبحانه للاجتهاد فيجب أن نحترم فيها اجتهاد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى أو اجتهاد .

ومعنى ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ .. (٥٢) ﴾ [المؤمنون] أن من عطاء ربوبيتى أنْ جعلْتُ لكم أموراً محكمة وعقائد ثابتة ؛ لأن الاختلاف فيها يفسد

المجتمع ، وتركتُ لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كُلٌّ حسب اجتهاده ؛ لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد فى المجتمع ، وسبق أن مثّلنا لهذه الأمور .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُونِ ۝٥٢ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بطاعة الأمر ، فما أحكمتُه فأحكِموه ، وما جعلتُ لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين .

لكن ، هل سمعنا قوْل الله وأطعْنَا ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ ﴾

﴿ زُبُراً .. ۝٥٣ ﴾ [المؤمنون] يعنى : قطعاً متفرقة ، ومنه ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ .. ۝٩٦ ﴾ [الكهف]

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ ﴾ [المؤمنون] يعنى : كل جماعة تتعصب لرأيها وتفرح به ، وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويُصوِّرون لهم أنهم أتوْا بما لم يأت به أحد قبلهم ، وتنبّهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .

﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ .. ۝٥٣ ﴾ [المؤمنون] بالرأى الذى يريدونه ، لا بالحكم الذى يرتضيه الحق سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم : إن الصلاة فى مسجد به قبر أو ضريح باطلة ، وأن ذلك شرك فى العبادة .. إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر فى المدينة .

إن على هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات أنْ يتفهموا الأمور

على وجهها الصحيح ، حتى لا نكون من الذين قال الله عنهم : ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون]

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلاَّ فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشَّرَتْ بمحمد ﷺ ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صلة بالسماء ـ يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون : لقد أطلَّ زمان نبي يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

ومع ذلك : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ۝٨٩﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الزمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله ﷺ ، وقد كان أحدهم[2] يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أنْ دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد ؟

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾

﴿فَذَرْهُمْ .. ۝٥٤﴾ [المؤمنون] يعني : دَعْهم ، والعرب لم تستعمل الماضي من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. ۝١١﴾ [المزمل]

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) هو عبد الله بن أُبيّ بن سلول . رأس المنافقين في المدينة . أبو الحباب من خزاعة ، وسلول جدته لأبيه . كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم . وكلما سمع بسيئة نشرها . توفي عام ٩ هجرية . [الأعلام للزركلي ٦٥/٤]

وفى قوله تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ ..(٤٤) ﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم ، وافعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والغمرة : جملة الماء التى تغطى قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ، فلا يبقى له من أمل فى الحياة إلا بمقدار ما فى رئته من الهواء ؛ لذلك يحرص الإنسان على أنْ يُمرِّن نفسه على أن تتسع رئته لأكبر قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المنافسة ، وأصلها أن يغطس اثنان تحت الماء ليختبر كل منهما الآخر : أيُّهما يبقى فترة أطول تحت الماء ودون تنفس .

ويقول تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين] وتستطيع أن تُجرى مع نفسك هذه المنافسة ، بأن تأخذ نفساً عميقاً ثم تعد : واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما فى رئتك من الهواء .

فالمعنى : ذَرْهم فى غبائهم وغفلتهم فلن يطول بهم الوقت ؛ لأنهم كمن غمره الماء ، وسرعان ما تنكتم أنفاسه ويفارق الحياة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) ﴾ [المؤمنون] والحين مدة من الزمن قد تطول ، كما فى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد تقصر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] وكأن الله تعالى عَبَّر بالغمرة ليدل على أن حينهم لن يطول .

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يروْنَ الكافرين بالله مُرفَّهين مُنعَّمين ، في يدهم المال والنفوذ ، في حين أن المؤمنين فقراء ، وربما تشكَّك البعض واهتزَّ إيمانه لهذه المتناقضات .

ونقول لهؤلاء : لم تكن هذه صورة المؤمنين في الماضي ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافاتهم وازدهرتْ حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فلما تخلَّوْا عن دينهم وقيمهم حلَّ بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون ؛ لأنهم أخذوا بأسباب الدنيا ، وينبغي علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب ؛ لأنها من عطاء الربوبية الذي لا يُحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فَمنْ أحسنه نال ثمرته وأخذ خيره .

قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

والأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فَمنْ ردَّ يد الله إليه فلا بُدَّ أن يشْقى في رحلة الحياة .

وقد يكون تنعُّم هؤلاء مجرد ترف يجرُّهم إلى الطغيان ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعالج هنا هذه المسألة :

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٥٦)﴾ [المـؤمنون] أيظنون أن هـذا خـيـر لـهم ؟ لا ، بل هو إمـهـال واستدراج ليزدادوا طغياناً .

وفي موضع آخر يقـول سبحانه : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا .. (٨٥)﴾ [التوبة]

وقوله تـعالى : ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ.. (٥٦)﴾ [المؤمنون] (بل) : تفـيد الإضراب عما قبلها وإثبات ما بعدها ، إضرابٌ عن مسألة تنعُّم هؤلاء ؛ لأنها نعـمة مـوقوتة وزائلة ، وهى فى الحقـيقـة عليهم نقمـة ، لكنهم لا يشعـرون ، لا يشعرون أن هذه النعـمة لا تعنى مـحبتـهم ورضانا عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذى يُدبَّر لهم .

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه أولاً ، ويُوسِّع عليـه ويُعلى مكانته ، حـتى إذا أخذه كـان أَخْذه مـؤلماً وشديداً .

وقـوله تعـالى : ﴿نُسَـارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْـرَاتِ ..(٥٦)﴾ [المـؤمنون] المسـارعة ترد فى كـتاب الله على مَـعَانٍ : مـرة يتعدَّى الفـعل بإلى ، مثل : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] ومرة يتعدى بفى ، مثل : ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ..(٦١)﴾ [المؤمنون] فما الفرق بين المعنيين ؟

سارع إلى كذا : إذا كنتَ خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خُطَىً عاجلة ، لكن إنْ كنتَ فى الخير أصلاً وتريد أنْ ترتقـى فيه تـقول : سـارع فى الخـيرات . فـالأولى يخـاطب بهـا مَنْ لم يدخل فى حـيِّـز الخير ، والأخرى لمنْ كان مظروفاً فى الخير ، ويريد الارتقاء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) ﴾

الخشية : هى أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أمل فى النجاة ، ويتوقَّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منفذَ للأمل فيه ، ولا تهبُّ فيه هَبّة تُشعرك بلطف .

ومعنى ﴿ مُّشْفِقُونَ (٥٧) ﴾ [المؤمنون] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُمدَح ولا يُذم ؛ لأنه خوف يحمل صاحبه ويحثّه على تجنُّب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذى يستوجب العقوبة ، كالتلميذ الذى يذاكر ويجتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا الخوف المثمر الممدوح الذى يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أمّا الإشفاق بعد فوات الأوان ، والذى حكاه القرآن عن المجرمين : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا .. (٤٩) ﴾ [الكهف] فهذا إشفاق لا فائدة منه ؛ لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشِرت الكتب ولا أملَ فى النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾

نلحظ فى هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم فى النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك ؟

نقول : لأن الشرك المراد هنا الشرك الخفى الذى يقع فيه حتى المؤمن ، والذى قال الله فيه : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف] فلا تظن أن الشرك فقط أن تجعل لله شريكاً ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشرك شرك خفى دقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمناً .

لذلك ، فالنبى ﷺ يُعلِّمنا الأدب فى هذه المسألة ، فيقول فى دعائه : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالإنسان يشرع فى العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شىء من الرياء وتزيين الشيطان ؛ لذلك وصف النبى ﷺ الشرك الخفى بأنه أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[2] .

كما أن الشرك الأكبر لا يتصور مِمَّن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمتَ » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/٤٠٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا[(١)] وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ يُؤْتُونَ . ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى المال ، وقال بعدها : ﴿ مَا آتَوا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿ مَا آتَوا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] هكذا مُبْهمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضُّل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الذاريات]

والمحسن : الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك تجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات » أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٩/٦ ، ٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٩٨) ، واللفظ للترمذى .

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَلِّ العشاء ونَمْ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى بعدها : ﴿وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإبهام فى ﴿مَا .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] جاء أيضاً فى قول الله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذى غشيهم ، وترك المسألة مبهمة ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون فى هَوْلها كل مذهب .

لكن ؛ ما داموا قد أعْطَوا ومدُّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتحرَّوْن الإخلاص وأسباب القبول ويتصدَّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقتْ يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكأن ربك عز وجل يَغَارُ عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ؛ لأنك إنْ رأيت الناس فى شىء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْد مُهْدر لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفى الحديث القدسى : « الإخلاص سِرٌّ من أسرارى أودعته

قلب مَنْ أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده »[١] .

والوجل : انفعال قسرى واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شيء يخيفك أنت ، أما الخشية فهى أعلى من الخوف ، وهى أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] جاءت فى الرجل الذى يسرق ، والذى يزنى ، والذى يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجِلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى . وقالوا : إن عائشة رضى الله عنها فهمت هذا من الآية[٢] .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ .. (٦٠) ﴾ [المؤمنون] أى : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُؤتٍ ومُؤْتىً له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُون .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم .. الخ فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ ألاَّ يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

---

(١) ذكره الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٣٧٦/٤) قال العراقى فى تخريجه : « رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلاً يقول كل واحد من رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف » .

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥ .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ ﴾ [المؤمنون] فالمؤمن يؤدى ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وَجِلاً ؛ لأنه يثق فى الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذى يُجازيه على قَدْر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إنْ خالط عملَه شيءٌ من الرياء ؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً فى العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شيء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال فى ظاهرها أنها من الدين ، لكن فى طيها شيء من الرياء ، وإنْ لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك .. الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل فى طياتها معانى الشرك التى ينبغى أن نُنزِّه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦ ﴾ [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفَاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. ۝٣٩ ﴾ [النور] إذن : ما دُمْنَا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شيء غير الحق ، فليكُنْ عملنا للحق ، ولا شيء لغير الحق .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾

﴿ أُوْلَٰئِكَ .. ۝٦١ ﴾ [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ۝٦١ ﴾ [المؤمنون] وفرْق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرع يعنى : بذاته ، إنما سارع يسارع أى : يرى غيره